الكتب

جبران خليل جبران

تأليف الأستاذ ميخائيل نعيمة

يقع فى ٣٠٧ صفحات من القطع الكبير ، ثمنه عشرون قرشا ذهبا يطلب من المؤلف فى بكتا لبنان ، ومن المكاتب الشهيرة فى الأقطار العربية وفى مصر من مكتبـــة الهلال

هذا كتاب من كتب التراجم ، أخرجه للناس كاتب له فى الشرق العربى مكانة ، يحلل فيه حياة صديق عزيز عليه ، وهذا كما نرى موقف من أدق المواقف التى يصادفها أديب ، إذا أراد أن يتوخى الأنصاف فلا يظلم صاحبه ولا يظلم التاريخ . ولقد أحس المؤلف دقة موقفه كما يتضح فى مقدمة كتابه ، وعلى هذا الأساس سأبنى رأيى فى نقد ذلك الكتاب

ويحسن أولاً أن أعطى القارىء فكرة عامة عن تقسيم الكتاب وطريقة السير فى موضوعه ، ولست أسير فى التقسيم حسب أبوابه ، بل لقد أحسست بعد قراءته أنه ثلاثة أقسام عامة أولها : حياة جبران قبل أن يعرفه المؤلف ، ثم حياتهما معاً ، وأخيراً تجد ملحقاً فى ذيل الكتاب عن وصية جبران ورسائله الى المؤلف وتخايده ، وغير ذلك مما حدث بعد موته

فالكتاب كما ترى وصف حياة رجل من أولها حتى خاتمتها . وفى كتب التراجم إما أن يكون المؤلف غريباً عما يكتب عنه ، أو صديقاً له . بيد أن هذا النوع من التأليف أو هذه الناحية من نواحى الكتابة تسير أو ينبغى أن تسير فى أساسها وجوهرها وفق ما اصطلح عليه الأدباء فى هذا الباب الذى يعتبر فى ذاته فناً من فنون الكتابة كسواه من الفنون ، مثل القصص والروايات المسرحية ، وكتب النقد وغيرها

يبدأ المؤلف فى كتب التراجم عادة بوصف الأسرة التى ولد منها صاحب الترجمة ، كصورة لبيئته المنزلية وما قد يختلط بدمه من وراثة ، ثم يأخذ فى وصف بيئته الطبيعية والاجتماعية مصوراً طفولته وأخلاقه فى تلك الفترة وما يلقى من تربية ، وما كان من أثرها فى حياته المستقبلة ، ثم يتدرج به فى مراحل الحياة فى تسلسل متصل ووحدة مترابطة الى ما صادفه من حوادث ، مبيناً علاقتها بفنه وأثرها فى توجيهه ، وفى ضوء ذلك كله يحلل آثاره موضحاً ما فيها من تأثر بما سلف ، على أن يكون أساس ذلك كله الحقيقة لا الخيال . فالأسناد الصحيح القوى فى كتب التراجم عنصرها الجوهرى ، ولا سيما إذا كان المؤلف صديقاً لمن يتحدث الى الناس عنه ، وإذا أراد المؤلف أن يقول رأيه فى آثار صاحبه وفيما تخلل حياته من قوة أوضعف ، فليبتعد عن التحيز إن أراد الكمال

وبعد ، فماذا رأيت فى كتاب الأستاذ ميخائيل عن صاحبه المرحوم جبران خليل جبران ؟ مضيت فى قراءته فاذا بالمؤلف يسير فيه على نهج غريب ، حتى لقد كنت أحسبنى فى القسم الأول حيال قصة لا حيال شخص معروف ، فلقد أحاطنى المؤلف بجو من الخيال تحت عنوان خيالات بشرى ، وراح يصف لحظة مولد جبران ، وما كان من أعمال أبيه وأقوال أمه وأقوال الجيران فى تفاصيل تغيب حتى على من يرى رأى العين ، ثم يطير بى إلى مدينة كولومبيا بأمريكا ، فيصف لى فتاة تحلم فى نومها ، ويصف حلمها كأنه هو الحالم ! ثم يعود الى بشرى فيعرض لى بعض صور من طفولة جبران ومن حياة أسرته ، ولكن عليها جميعاً طابع الخيال ، فتفاصيلها لا يمكن أن يلم بها إلا شخص يتحدث عن نفسه ، على أن يكون قوى الذاكرة الى أقصى حد ؛ ومن أمثلة ذلك وصف والدة جبران (ص ٢٠) وحكاية بائع الزيت (ص ٢٣) . وما لى أورد الأمثلة ، وهذا القسم الأول من حياة جبران قبل أن يعرفه المؤلف عبارة عن قصة خيالية ؟ ولقد كان المؤلف وهو يصف حياة جبران وهو فى بوسطن ، ينقل اليك تناجيه

وخلجات حسه ، ونزعات قلبه ، وانفعالات نفسه ، كمن يكتب مذكرات لساعتها عن نفسه . خذ لك مثـــلاً حواره مع أبيه (ص ٣٢) ، وزيارته للفنان ، (ص ٣٣) ، وخلوته مع المرأة التي دعته إلى منزلها (ص ٤٠) ، ومناجاة نفسه (ص ٤٧) ، وهو يكتب مقالاً ويصححه (ص ٦٢) ، وأثنـاء عرضه صوره وعلاقته بماري الفتاة الحالة في أول الكتاب وهي الآن مديرة مدرسة ، وعلاقته بميشيلين ، وغير ذلك من عزلاته وهواجسه ... الخ

وما أظن أن عرض هـذا الجزء من حياة جبران على مثل تلك الصورة الخيالية ، وما فيها من براعة ومن رواء ، متفق مع ما يتبع في كتابة التراجم ، أو باعث في القلب ماتبعثه الحوادث التي يدعمها الأسناد والرواية ، وتطلبها الحقيقة من الأهتمام والعناية . هذا إلى أن المؤلف في تلك الفترة من حياة جبران لم يعلق على ما فيها من مواقف ، وما كان لحوادثها من أثر في مستقبله ، ولكن ما حاجته الى التعليق ؟ بل كيف يتسنى له ذلك وقد صور لنا جبران كما لو كان جبران يحدثنا عن نفسه ؟ وبذلك تخلص من عرض رأيه في صاحبه

ومما يلاحظ على هذا القسم من الكتاب أن الرابطة فيه ضعيفة ، وقد ذكرت فيه بعض الحوادث دون أن يفهم القصد من ذكرها ، فلم تكن للتبسط أو للتحليل أو لبيان العلاقة بين المترجم له وبين الحياة

أما في القسم الثاني من الكتاب عند ماصحب المؤلف جبران ، فانك تحس بجو من الحقيقة ويبتعد عنك الخيال القصصي ، ويحدثك المؤلف عن جبران كما رآه في عدة مناسبات ، وتبدأ تهتم بحياة جبران وآثاره ، وتتضح لك شخصيته فتزداد معرفة به ، وان جهلت الظروف التي كونته هذا التكوين ، اللهم إلا ما كان من تأثير (نيتشه) فيه ، وهو ما شرحه المؤلف في آخر القسم الأول . على أنك في هـذا القسم الثاني من حياة جبران لن ترى المؤلف يحدثك عن رأيه في صاحبه من الناحية الأدبية أو الخلقية ، ولا تجد منه مناقشة جدية لآثاره ومقدار قيمتها ، بل تراه يقتصر على ذكرها دون تعليق ، إذا استثنيت وصفه لكتاب « النبي » وإظهار أثر نيتشه فيه ، وقراءة قصيدته التي جاء ذكرها في (ص ١٦٠) معه ، وحتى في هذين ترى الأعجاب يغلب على النقد النزيه

لكنني كما قدمت أحس بدقة موقف الأستاذ ميخائيل بالنسبة إلى حياة صديقه جبران ؛ على أني أتساءل هل أنصف صاحبه وعرضه على الناس كما هو على حقيقته ، أم أحاط شخصيته بشيء من الغموض ؟ ولست أعرف إلا أن طريقته التي سلكها من الصعب أن توفي بغرضه ، وهل يتفق ذلك مع ما جاء في مقدمته (ألفت هـذا الكتاب على أمل أن يطالع القارئ من خلال فصوله صورة جبران كما عرفته لا « تاريخ » حياته الذي لا يعرفه أحد) ؟

ولئن اختلفت مع الأستاذ نعيمة في طريقته ، فاني معجب بمقدرته في الوصف ، وقوته في تحليل العواطف النفسية ، ورسم الخواطر الذهنية ، وقوة روحه التي خلصت الكتاب على طوله من الفتور ، وجعلتني أقلب صفحاته في شغف ولذة ، ولن أنسى دقة أسلوبه ومتانة نسجه ، لولا هنات ما كنت لأشير إليها لولا أنها علقت بهذا الأثر النفيس ، ومنها بعض المجازات الغريبة كتعبيره عن الموت بالغور في رحم الزمان (ص ١٧) وكوصفه الخالق بأنه « الحائك الأكبر قد التقط بمكوكه العظيم خيطي حياتهما من جديد » (ص ٦٨) ، وكوصفه القارئ بأنه يمضغ الكتاب بعينه وروحه (ص ١٠١) ، وما استعمله عن الفلس من المجازات (ص ١٢٣) ، وكقوله في (ص ٢١٥) يخفرها تنين النسيان ويطوقها غربال الزمان . . . وسواها من الأخيلة غير المألوفة ، والقياسات الشاذة كجمعه سؤال على سؤالات وكاستعماله لفظ اندلق للقهوة بدل أن يقول انسكبت مثلاً

على أنني كما ذكرت ما كنت لأعرض لهـذه الهنات لولا صدورها من أديب له مكانة كالأستاذ ميخائيل نعيمة

الخفيف

اشتراك مجاني في الرسالة

لمدة شهر يناير

لكل من يسدد الاشتراك في أثناء شهر يناير الحق في مجموعة كاملة من السنة الثانية للرسالة لا تكلفه غير أجرة البريد وقدرها خمسون مليما في مصر، ومائتا مليم في الخارج